شعر حسن الأمراني قراءة تأويلية

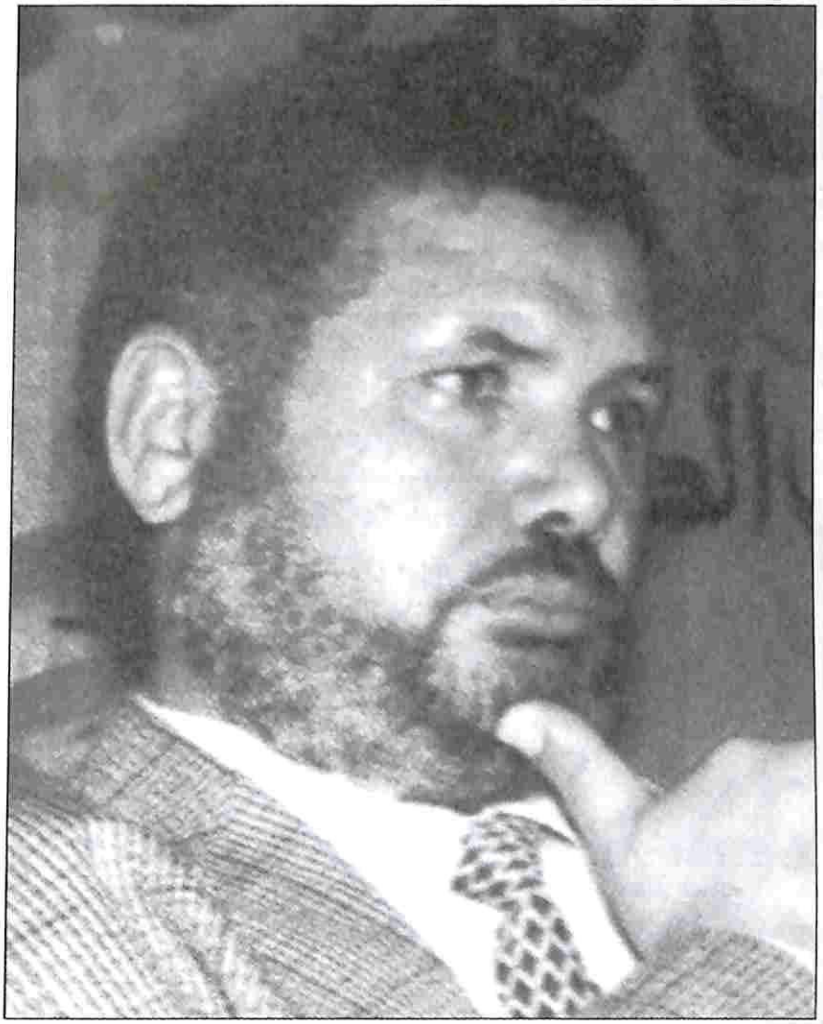

إعداد : محمد المتقن

نوقشت: هذه الأطروحة بمدرج عبدالله راجع، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن مسيك / الدار البيضاء في ٢٩ أيار/مايو ٢٠٠٣ م لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، (وحدة الأدب والتلقي والحاسوب) تقدم بها الطالب الباحث : محمد المتقن، تحت إشراف الدكتور محمد علي الرباوي، وذلك أمام لجنة علمية مكونة من الأساتذة:

- الدكتور مصطفى السلاوي رئيسا.
- الدكتور سعيد الغزاوي عضوا .
- الدكتور إدريس ناقوري عضوا.

وبعد المداولة قررت اللجنة منح الطالب الباحث شهادة الدكتوراه بميزة مشرّف جدا مع تهنئة أعضاء اللجنة .

ضم متن هذه الأطروحة أربعة عشر ديوانا . ولم يكن قصدي في عملي هذا موجها نحو التأريخ لشعر الأمراني، بقدر ما كان التنقيب عن التميز الذي يمثله شعره.

لقد وجدت نفسي إزاء متن الأمراني أقصد قصدا إلى المنهج الاستقرائي، فقد تكون لدي اقتناع من وحي اللقاءات العلمية مع فضيلة الأستاذ المشرف، ومن وحي شهودي المناقشات العلمية الجادة للأطروحات المقدمة إلى هذه الكلية العامرة، أن المنهج، أي منهج، لا يحمل في ذاته فضيلة، وإنما هو أداة وليس غاية.

لقد ألفيت القراءة التأويلية تتقاطع مع المنهج الاستقرائي في عنصرين هما : الدائرة التأويلية والسياق.

جاء هيكل الاطروحة مكونا من مدخل وبابين كبيرين متكاملين، أولهما متعلق باللغة التي كانت السبب في القول بالتأويل وضرورة اللجوء إليه منذ القديم، وثانيهما التناص الذي يعد عماد القراءة التأويلية، وأنهيت بحثي بخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع.

تطرقت في المدخل الذي عنونته بـ : « في مفهومي القراءة والتأويل» إلى مصطلح القراءة في النظرية النقدية، والوضع الذي كان عليه القارئ قديما، ثم عرجت على النظرية النقدية المعاصرة، وبينت سبب الاهتمام بالقارئ فيها، ومسوغات العناية بالقراءة، واستخلصت منها قسمات مصطلح «قراءة» المعاصر . وكان الجزء الثاني من المدخل، مناسبة للحديث عن أسباب نشأة التأويلية وأصولها الدينية في الغرب، وكيف كانت اللغة عاملا حاسما في هذه النشأة، ثم عرضت لتعريف التأويلية . وانتقلت إلى الحديث عن الدراسات العربية والتأويلية، ثم سعيت إلى تحديد المصطلح وتجلية قسماته، وانتصرت للرأي الذي يميز فن التأويل Hermeneutique عن التأويل Interpretation.

بعد المدخل جاء الباب الأول : « اللغة ومستوياتها » مقسما إلى خمسة فصول، أولها " الشعر ومركزية اللغة " مهدت له بالقول : إن الشعر لغة قبل أن يكون أوزانا وقوافي، وذكرت بما أوردته في المدخل من كون التأويلية لم تجانب الصواب عندما عدت اللغة هي النقطة التي يجب أن تكون المنطلق في التأويل . وهنا صرحت بفرضية التميز والمسؤولية التي أنوي اختبارها في هذه القراءة التأويلية فيما يتعلق بشعر حسن الأمراني . وقد جاء هذا الفصل موزعا على ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول : مواصفات اللغة الشعرية.

المبحث الثاني : تصور الحداثيين للغة الشعرية.

المبحث الثالث : المعجم.

أما الفصل الثاني المعنون بـ " اللغة التقريرية في شعر الأمراني وتأويلها " فجاء مشتملا على مبحثين، الأول منهما سميته " لغة البدايات" . وانتقلت إلى المبحث الثاني : " تأويل اللغة التقريرية " ومن خلال الإحصاء، تبين لي أن هذه اللغة مرتبطة ببدايات الشاعر.

وفي الفصل الثالث الموسوم بـ : " اللغة القرآنية وتأويلها " جاء المبحث الأول : " اللغة القرآنية في أعمال الأمراني" ليبرز الحضور المتميز للنص القرآني في شعر شاعرنا . أما المبحث الثاني من هذا الفصل، فقد خصصته لتأويل اللغة القرآنية في أعمال الأمراني.

وانتقلت إلى الفصل الرابع الموسوم بـ « اللغة الصوفية وتأويلها» وقسمته إلى مبحثين . الأول خاص برصد اللغة الصوفية في أعمال الأمراني . أما المبحث الثاني، فخصصته لتأويل هذا الحضور الصوفي في أعمال الشاعر بعيدا عن الانحراف العقدي.

وختمت الباب الأول بـ الفصل الخامس الذي وسمته بـ « اللغة المعتقة وتأويلها»، وفي المبحث الأول منه، بينت المقصود بكلمة "المعتقة" التي نعت بها لغة الأمراني، وقصده من استعمالها، وهجره للغة الحديث اليومي التي قامت حولها ضجة كثير من المنظرين للشعر العربي المعاصر .

وخصصت المبحث الثاني من هذا الفصل، لتأويل هذا الحضور الكثيف للكلمات العتاق في أعماق الأمراني .

وفي الباب الثاني : « التناص ومصادره في شعر الأمراني» الذي قسمته إلى مدخل وأربعة فصول، تحدثت – في المدخل – عما تعرض له التناص، من تشويش كبير عند انتقاله من اللغات الأوربية إلى اللغة العربية، ثم عرجت على تعريفه، وذكر قيمته، وبعض الطرق التي يأتي عليها . وفي الأخير حددت ماذا أقصد بالتناص وأنا أدرس شعر الأمراني .

وقد توزعت الفصل الأول : «التناص مع القرآن الكريم» ثلاثة مباحث، هي : التناص الأسلوبي والدائرة التأويلية، والتناص المعنوي والدائرة التأويلية، والقصة القرآنية والسياق.

وانتقلت إلى الفصل الثاني « التناص مع الحديث النبوي » وخصصته للنظر في كيفية تسرب الحديث الشريف إلى شعر الأمراني، وذلك من خلال تخصيص مبحث لكل طريقة من الطرق الثلاث، التي وقفت عليها في شعره .

وفي الفصل الثالث الذي وسمته بـ « التناص مع الشعر » انتهيت إلى أن محفوظ حسن الأمراني الشعري، ينحصر في ثلاثة متون كبيرة، تناولت كلا منها في مبحث مستقل . وهكذا جاء المبحث الأول متناولا الشعر العربي القديم . وافتتحت المبحث الثاني " التناص مع الشعر العربي الحديث " بالحديث عن أنواع التناص التي هيمنت على تناص شعر الأمراني مع الشعراء المحدثين . وأنهيت هذا الفصل بمبحث ثالث يتعلق بالتناص مع الشعر العربي المعاصر . أما الفصل الرابع " التناص مع السيرة النبوية والتاريخ " وبه ختمت الباب الثاني من الأطروحة - فتمخض في استقرائي لأشعار الأمراني عن تناص شعر الشاعر، مع السيرة النبوية والتاريخ العربي العام، قديمه وحديثه . ودرست كل مصدر من هذين المصدرين في مبحث مستقل.

***

لقد اعترضت سبيلي في هذا البحث، جملة صعوبات . فإذا كان قد قر قراري، منذ البداية، على دراسة شعر حسن الأمراني، فإنني قد تهيبت فيما بعد المضي في هذا القرار لأسباب منها : أن هواي مع هذا الشاعر، فكيف لي أن أنجز بحثا موضوعيا حوله؟! ثم إنني وجدت نفسي وجها لوجه أمام بحار الشعر المتلاطمة وأمواجها العاتية . وبدا هذا التهيب في التغيير الكبير الذي طرأ على التقرير الثاني، الذي قدمت نسخة منه لفضيلة الأستاذ المشرف، بعد قرابة السنة من التنقيب والبحث وتقليب الأمر على وجوهه المختلفة. ولما انتهيت من قراءة المتن، القراءة المتأنية التي جلت لي قسماته البارزة عنت لي صعوبة أخرى تمثلت هذه المرة في المصادر والمراجع المتناولة للتأويل، فجلها لايتحدث عن التأويل باعتباره قراءة منهجية لها ضوابطها وعناصرها التي تحول بينها وأن تكون قراءة على هوى القارئ أو الباحث، وهنا شمرت للتنقيب في بطون الكتب العربية والأجنبية، وبين ثنايا المجلات الأدبية والفكرية، التي كانت قلما تجود بما أبحث عنه . ولكنني استطعت في الأخير أن أتجاوز هذا، عندما جمعت شتات هذه القراءة المسماة بالتأويلية واهتديت إلى خصائصها وعناصرها.

***

أشير في الأخير، إلى أنني جعلت الجداول الكبيرة في ملحق خاص، وذلك حتى لا يشرد ذهن القارئ عن تتبع التعليق الذي كان يتلوها، أما الجداول القليلة العدد فلم أمسسها بتغيير، وأنهيت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم ما انتهيت إليه من نتائج وهي:

١- تمخضت دراستي لمفهومي القراءة والتأويل في المدخل، عن كون القراءة التأويلية تتطلب قارئا نموذجيا أو خبيرا ينهض بتكاليف وتبعات هذه القراءة.

٢- انتصرت للرأي الذي يميز التأويلية عن التأويل.

٣- أسفر تنقيبي عن القراءة التأويلية، عن أن هذه القراءة ليست دون معالم تدل عليها، فهي قراءة ذات خصائص وعناصر.

٤- تمخضت قراءتي المتكررة عن اقتناعي بكون الشاعر حسن الأمراني قد مر بخمس مراحل تطور خلالها شعره تطورا ملحوظا وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى: مرحلة البدايات.

المرحلة الثانية : مرحلة الإرهاص بالتأسيس.

المرحلة الثالثة : مرحلة التأسيس.

المرحلة الرابعة: مرحلة التحول.

المرحلة الخامسة: مرحلة القصيدة / الديوان.

٥- وقفت في الفصل الثاني على شيوع اللغة التقريرية في بعض أعمال الأمراني الممثلة لمرحلة البدايات وجزء يسير من مرحلة الإرهاصات بالتأسيس، وأرجعته إلى رغبة الشاعر في التعبير عما كان يملأ الساحة الوطنية منه صراع عقدي «إيديولوجي» في العقد السبعيني إلا أن هذه اللغة ليست المهيمنة إذا ما قورنت بالمستويات اللغوية التي ذكرتها.

٦ - في فصل اللغة القرآنية تبين لي أن القرآن الكريم ركن شديد من أركان ثقافة الأمراني، وقد كشفت لي طرق الشاعر المتنوعة في استدعاء اللفظ القرآني أننا في حضرة شاعر كبير يتصرف في لغته بحرية كبيرة، تشي بقدرته الفنية العالية.

٧- انتهيت في الرابع المتعلق باللغة «الصوفية» إلى :

أ) أن سبب لجوء الشاعر المعاصر إلى لغة التصوف يكمن في متانة الصلة القائمة بين الشعر والتصوف السليم.

ب) تدرج الأمراني في استعمال اللغة الصوفية من التقليد إلى الاستعمال الذي ينم عن نضج كبير.

ج) نسبة استعمال الأمراني للغة الصوفية، نسبة عالية وهي تأتي في المنزلة الثانية بعد اللغة القرآنية.

د) أن الأمراني تدرج في استعمال اللغة الصوفية فكثف من استعمال مصطلح النور بظلاله الندية، ومصطلحات التقوى والقلب والتعبير بواسطة الأنثى في لغة عفيفة، وتوظيف مصطلحات الحزن والنار والرؤيا وكل هذا يدل على أننا أمام صرح شعري جديد وفتح شعري عربي.

٨ - ميزت في الفصل الخامس لغة أخرى يستعملها الأمراني هي التي سميتها اللغة المعتقة، وقد بينت المراد من هذه التسمية، حيث عنيت بالعتق الجمال والسبق والروعة والكرم، واستنتجت أن استعمال الشاعر لهذه اللغة رد عملي على دعاة توظيف لغة الحديث اليومي المبتذلة.

لقد استعار الأمراني في تجربته الشعرية لغة القرآن الكريم ولغة التصوف السليم إلى جانب اللغة المعتقة، لأن لهذه المعاجم إيحاءات خاصة، قصد الشاعر بها الوقوف في وجه التنظيرات الحداثية التي هجنت الشعر العربي ومسخته بدعوتها إلى تبني لغة الحديث اليومي.

وفي الباب الثاني توصلت إلى مجموعة من نتائج أهمها:

١) أن الأمراني يعتبر مختصا في استلهام القرآن الكريم، وقد تناص شعره مع القرآن الكريم من حيث الأسلوب والمعنى، مع ارتباط الأول بمرحلة البدايات، في حين ارتبط التناص المعنوي بالمراحل الأخرى.

٢) في التناص المعنوي يبدو الأمراني شاعرا متميزا من خلال تجليات توظيفه لهذا النوع من التناص.

٣) أن الأمراني ينوع في طرائق توظيفه للحديث النبوي، مما يحيلنا على مظهر آخر من مظاهر ثقافة الأمراني.

أما فصل التناص مع الشعر فكشف لنا عن محفوظ الشاعر الذي ينحصر في ثلاثة متون كبيرة هي الشعر العربي القديم والشعر العربي الحديث والشعر العربي المعاصر.

والنتيجة العامة لهذا الفصل، هي أن المتن القديم هو المتن الأكثر حضورا في شعر الأمراني وعلى رأس قائمة شعرائه أبو الطيب المتنبي.

في فصل التناص مع السيرة النبوية والتاريخ، وظف الشاعر السيرة النبوية خلال الفترتين المكية والمدنية . تحضر في الفترة المكية عدة محاور، مثل محور البعثة ومحور الابتلاء، ومحور الهجرة، وكل هذه المحاور كانت تكتسب معنى معاصرا من خلال ربط الشاعر لها بواقعنا المعاصر . أما الفترة المدنية من السيرة العطرة فإن الشاعر قد اصطفى منها بعض الغزوات، فوظفها مثل غزوة أحد وتبوك وكلها ذات معان تحيل على الواقع العربي المهزوم.

وفي الجزء الثاني من هذا الفصل الأخير وصف الأمراني تاريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ الأمويين، وقد تبين أن التاريخ الإسلامي هو ملهم الأمراني.

لقد كان تعامل الأمراني مع كل من السيرة النبوية والتاريخ، تعاملا فنيا راقيا، من خلال الإيحاءات التي كانت تلقيها ظلال تلك الأحداث على الواقع العربي المعاصر.

كنت أطمح في هذا البحث، إلى تناول عنصرين مهمين يجسدان - إضافة إلى ما سبق ذكره - معلمتين من معالم التميز عند الأمراني هما الرمز وبناء القصيدة . فالرمز في شعر الأمراني يكتسب أهمية خاصة، من خلال تدرج الأمراني في التعامل مع الرموز، إلى أن بلغ مرحلة إبداع رموزه الخاصة . أما معمار القصيدة عند الأمراني فهو شيء لا تخطئه العين . ولعله قد تتاح لي أو لغيري من الباحثين فرصة معالجة هذين العنصرين المهمين.

لقد فتح هذا الباحث الباب أمام الراغبين في التعرف على علم من أعلام الأدب الإسلامي المعاصر في المغرب، ولعله سيفتح هذا الباب أكثر إذا ما قام غيري بدراسة هذا الذي أضافه الأمراني وسواه من رواد الشعر الإسلامي المعاصر، من خلال دراسة مقارنة يسهر عليها فريق من الباحثين. ■